

XIX PREMIO DE TRADUCCIÓN FRANCISCO AYALA

الوطن ليس هنا

لا أدري لماذا وأنا أتابع السير للوصول إلى بيت عزيز، كنتُ أفكر في ليلى وفي زهرة. الفرق الكبير بين شخصيتيهما. ليلى رومانسية، حنونة، تعيش الحب بكل تطرف وتلقائية، تعطي لحبيبها كل الوجود دون تحفظ. أما زهرة، فكل ما يجمعني بها شعور زنبقي غامض، تارة يكون حيا هائجا وتارة أخرى فوضى من الأحاسيس المتضاربة والمتناقضة. بيني وبين زهرة، الحب هو الاستثناء أمّا النفور والصراع فهما القاعدة.

خلصت أنّ الحب لا يؤمن بالمنطق ولا بقوانين الاحتمالات. قد يجمع امرأة ورجلا لديهما كل أسباب النفور من بعضهما، ويغيب عندما يلتقي أحران متشابهان حد التطابق!! أيلعب معنا لعبة استعراض العضلات بكل هذه القسوة ليهن لنا أنه يصنع بأقدارنا ما يشاء؟ من أين له كل هذه السادية؟ أمن المعقول أن يكون الحب الذي غنّت عنه أم كلثوم وأسمهان وعبد الحليم غرابا أسودا ينذرنا بالكارثة والسنوات العجاف عندما يطرق باب حياتنا؟، يحلّق فوق رؤوسنا منتظرا أن نصبح جيفا من الألم ووجع الفراق حتى يقتات على جثتنا...؟

أيعقل أن يقتات الحب من جثث رواده؟، أيعقل أن يبني أساطيره من عظامهم!!؟

لا أعرف لماذا دعاني عزيز وزوجته إلى العشاء هذه الليلة؟

كانت الأسئلة تتقاطر على رأسي كزخّات المطر...

كان عزيز ينتظرني بكل حرارة ولباقة عند باب المنزل الجميل الذي كانت تتقدمه حديقة صغيرة غطاها الورد والزهر الفاتح اللون. عزيز شاب ذكي، يستغل فرص النجاح السهلة ولا يضيع وقته في التفاهات التي لن تعود عليه بالنفع. وها هو الآن يعيش كبورجوازي بعد أن تسلّق السلم الاجتماعي بالطرق التي يجيدها. كان يعرف منذ أيام الجامعة أننا نضيع وقتنا وطاقتنا في النضال السياسي وحلمنا بالاشتراكية والتحرر العربي... كان دائما يقول لنا إن تحرر المرء يأتي عبر المال والسلطة.

لقد أصبح الإنسان آلة مادية تجري وراء الثروة والسكن الجميل والسيارات الفارهة وتكديس الأموال. أصبحت الحياة مادية لا نكهة لها... تراجعت كل تلك القيم الجميلة والروحية التي تميز الإنسان، لم نعد نسمع بقصص حب كبيرة كنتك التي سمعنا عنها في الزمن الجميل الغابر ولا تلك الملاحم الفلسفية والفكرية التي رسمت لنا قرونا زاهرة في تاريخ البشرية.

بعد أن كان العالم يملكه سقراط وأفلاطون وأسخيلبوس والمتنبي وهوميروس وعنتر عبلة وقيس ليلى وروميو جولييت وابن خلدون وميشال عفلق وزكي الأرسوزي، أصبح يحكمه الماديون والعائلات الثرية وأمراء الحروب والبتترول وإرهابيو القاعدة وداعشيو الخلافة الإسلامية المزعومة...

لقد انقلب هذا العالم على نفسه وأصبح فارغا أجوف من كل معانيه وقيمه الروحية.

على طاولة الطعام، استطاعت منار بشخصيتها اللطيفة والمرحة أن ترسم الابتسامة على شفقتينا أنا وعزيز... كانت تتحدث بحيوية بالغة وجمال مثير. تأكّدت حينها أنني أحسد عزيز على هذه المرأة، لكن في نفس الوقت قلّت في نفسي إن ليلى هي سيدة المرح والجمال ولا يمكن أن توجد فتاة أعذب منها.

قطعتُ رنة هاتفي صوت منار، اعتذرتُ حينها كي أجيب:

-ألو...-

- مساء الخير يا طارق ولد الخيل..
- مساء الخير سيدي، من معي؟
- لا يهم، المهم هو ما ستسمعه مني والأهم هو أن تنفذه وأن تحترم رغبة الوطن..
أجبتُ باستغراب وتوجس بعد أن أربكني هذا المتصل المجهول:
- أنا أسمعك...
- كنا نظنُّ يا بني أن تصرفاتك ستتسم بالعقلانية بعد مغادرتك للجامعة وتخليك عن العمل السياسي، لكننا اكتشفنا الآن أنك بت أكثر طيشاً وتهديدا لهذا الوطن بمقالاتك الصحفية. ورغم ذلك أظهرنا الكثير من العطف واللامبالاة وأغمضنا الطرف عن حماقاتك. وها أنت اليوم تسيء لمؤسسات الدولة وتشوه سمعتها كما فعلت في بحثك الصحفي الأخير. هذا أمر مرفوض وبشدة...
- البحث الصحفي تناول قضايا فساد موثقة والجريدة تملك ألف دليل وراء كل كلمة قيلت فيه، وإن كان لديكم أي اعتراض فالمحاكم أمامكم لمقاضاتنا. ألا نعيش في دولة القانون والمؤسسات كما تقولون!!
- دولة القانون هذه التي تتمتع فيها سيادتك بالحرية والديمقراطية بناها أناس شرفاء، أوفياء لهذا الوطن وليس أولئك الفوضويون والغوغائيون الذين يحاولون تهديد استقراره وحالة الاستثناء التي يعيشها وسط كل الدول العربية التي تغوصُ الآن في الفوضى. عليك أن تشكرنا على نعمة الأمن يا جاهد..
- صحيح ... نشكركم على هذا الأمن والاستثناء!!
- اسمع، إما أن تحترم رغبة هذا الوطن وإرادة مؤسساته، أو تغادره. والسجون وضعت لأمثالك.
انقطع الاتصال .. لم أكن أظن أن الماضي سيجتاحني بكل ذكرياته الجارفة هذه الليلة. لم أتخيل وأنا المعذب بقصص الحب واحتضار الحياة أن يهدد كياني من جديد خوف الاعتقالات والتعذيب والمتابعات البوليسية. كان عزيز ومنار يعنعان النظر إلي في انتظار أن أشرح لهما ما دار على الهاتف، لكنني قطعْتُ حيرتهم قاتلا:
- منار، أنا بحاجة لصوت جميل يداعب أذني فقد أتعبتني أصوات النشاز ... احكي لي قصة مُمتعة بطلتها امرأة جميلة، فالمرأة وحدها القادرة على رسم قدر جميل لي وسط كل أقدار الجحيم التي أعيشها.

مراد الضفري. "الوطن ليس هنا". مطبعة سومأگرام. 2014.

Organizan:



FACULTAD
DE TRADUCCIÓN
E INTERPRETACIÓN



UNIVERSIDAD
DE GRANADA

fundación FRANCISCO AYALA